نظريــات العلاقات الدولية والحرب: مراجعة للأدبيات (2-2)

الأستاذ الدكتور أحمد محمد أبو زيد
قسم السياسة والعلاقات الدولية- جامعة أبردين (المملكة المتحدة)
مدير الأبحاث بالمعهد الدولي للدبلوماسية الثقافية IICD
دبي، الإمارات العربية المتحدة
ahmed.abouzaid.16@abdn.ac.uk

تمهيد:

إذا كانت الحرب هي استمراراً للسياسة بوسائل أخرى، كما ذكر كلاوفيتنز، فإنه من صحيح القول الادعاء بأن السياسة هي أيضا امتدادا للحرب بوسائل أخري (كما ذكر ميشيل فوكو) أو امتدادا للتجارة بوسائل أخري (كما يقول المؤرخ العسكري البريطاني الشهير مايكل هوارد). ويغالي بعض الواقعيين في النظر إلي الحرب ويعتبرونها المُقرر الرئيسي لتحديد ماذا تريد الدول من وجودها في النظام الدولي. وهي بهذا المعني أصبحت لديهم مرادف للسياسة (*Politics*) بمعناها العام، كما عرفها عالم السياسة هارولد لازويل، علي أنها عملية توزيعية بين الفاعلين السياسيين، المحليين منهم وعابري الدول جوهرها "تقرير وتحديد من يحصل علي ماذا؟ وأين؟ وكيف؟". وهو ما يعني أن الحرب ستظل (شئنا أم أبينا) ظاهرة دائمة في حياة الأمم والشعوب. فمنذ أن وجد الإنسان على الأرض وهو يصارع/يحارب. سواء مع الطبيعة، الحيوانات، أو مع نظائره من البشر. ومع بزوغ وتطور المجتمعات والأمم والدول القومية، ظل الصراع هو السمة السائدة على العلاقات والتفاعلات والسلوكيات البشرية، وبالتالي الدولية.

وبعد أن تم التطرق في الجزء الأول من هذه الدراسة الأطروحات النظرية، والجدل القائم حولها، بين الاتجاهات النظرية الرئيسية حول ظاهرة الحرب بين الأمم في المستقبل. ولكن قبل التطرق لهذه الأطروحات، وبعد أن تطرق الجزء الأول عن ماهية الحرب، وما هو تأثيرها علي نوعية وطبيعة العلاقات بين الدول القومية والفاعلين الدوليين في ظل نظام عالمي فوضوي. يحاول الجزء الثاني إكمال الجدل النظري بين المدارس الفكرية في العلاقات الدولية عبر القرن العشرين حول فكرة كيف تنشب الحروب

وما هو التفسير التاريخي لنشوء الحرب. في الجزء الثالث ستتطرق الدراسة بالمناقشة والنقد للأطروحات والجداليات التي قدمتها المدرسة الرئيسية في حقل العلاقات الدولية (الواقعية، الليبرالية، والنقدية الاجتماعية) حول مسألة لماذا تنشب الحروب وكيف يمكن تجنبها. في الخاتمة سنحاول استشراف مستقبل ظاهرة الحرب في ظل الدعاوي والاتجاه النظري، المدعم بأدلة وبراهين تاريخية وامبريقية شبه دامغة (من وجهة نظر القائلين بها) تقول بأن ظاهرة الحرب إلى فناء.

المدرسة النقدية:

المقصود بالنظرية النقدية "ذلك الاتجاه النظري القائم علي تحليل العلاقات الدولية (في النظرية والتطبيق) بناء علي مجموعة من التحليلات المستندة علي الأطروحات الماركسية في دراسة مصادر عدم المساواة الهيكلية الموجودة في النظام الدولي، وكيف يمكن التغلب عليها". وفي طريقها لتحقيق ذلك فإنها غالباً ما تستهلم التراث الماركسي (ولكنها ليست ماركسية) في إلقاء الضوء علي كيف تسهم العلاقات بين الدول في ترسيخ اتجاهات عدم المساواة، وكيف تميل إلي إخفاء ظلم النظام الرأسمالي العالمي بل وتسويغه، جنباً إلي جنب مع جدالهم النظري الثاقب والمتعمق حول المعرفة وفلسفة العلم والعلاقة بين القوة والسلطة والمعرفة في كافة مجالات العلوم الاجتماعية [1].

تركز النظرية النقدية علي الجدالات المجتمعية والعالمية حول ماهية الأفراد، هل هم مواطنين عالميين، أم جزء مجتمعات سياسية (طائفية) تحمل قيماً أخلاقية. علي الرغم من أن كلا التصوران يسعيان (كما يدعي مناصريها) إلي توسيع حرية الإنسان والالتزام الأخلاقي بين الأفراد في الممارسات الدولية [2]. حيث تميل المدرسة النقدية بالأساس للتركيز علي اتخاذ المجتمع (كوحدة منفردة) والتركيز علي دراسته وتحليله، وإهمال البعد المتعلق بالعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات (العلاقات الثنائية) أو فيما بين المجتمعات (العلاقات البينية). وهو الأمر الذي دفع الأجيال التالية لمدرسة فرانكفورت (خصوصاً من بداية ثمانينات القرن العشرين) للعمل علي توسيع نطاق ومسار دراسة مدرسة فرانكفورت خارج نطاق المحلية إلي الدولية (*International*) أو بعبارة أدق العالمية (*Global*) علي أيدي كتاب وعلماء مثل اشلي، كوكس، بوث، بوزان، لينكليتر وسميث وغيرهم، اعتماداً علي أفكار فلاسفة مثل غرامشي وهابرماس واي اتش كار وهيدلي بول. حيث سعت

---

1. Martin Griffiths, Steven Roach, and Scott Solomon (eds.): "Fifty Key Thinkers in International Relations". 2nd edition (New York: Routledge, 2009), p. 161.

2. Molly Cochran: "Normative Theory in International Relations". (New York: Cambridge University Press, 1999), pp. 67, 20-22.

هذه المحاولات الي "الالتزام بغاية تحرر جميع الكائنات *Emancipation*" علي حد قول اندرو لينكلتير. وذلك عبر توسيع نطاق العقلانية ونشر المنظمات السياسية العادلة والديمقراطية عبرا لمجتمعات السياسية في العالم كله.

أما بخصوص حقل العلاقات الدولية، فإن جوهر النظرية النقدية هي التشكك في طبيعة النظام العالمي المهيمن، من خلال اتخاذ موقف متحدي ومعارض للإطار العام لهذا النظام، وإعادة تأمل القواعد المبني عليها وكيفية تفسيرها وتشكيلها. حيث قام كوكس بإعادة اختبار (أو التشكيك) في أصول وشرعية المؤسسات السياسية والاجتماعية والطرق التي تتغير وتتطور بها عبر التاريخ، والتي اعتبرها كوكس "استمراراً لعملية التغيير". حيث تسعي النظرية النقدية لتحديد ما هي العناصر التي تنتمي للنظام الدولي باعتبارها "عالمية" وأيها تعتبر "مصادفة أو شرط تاريخي".

الفكرة الأساسية التي تقوم عليها المدرسة النقدية في دراسة العلاقات الدولية هو أن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تكون موجهة بواسطة السياسات التحررية. حيث رأي البعض كيف أظهرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من إعلان "الحرب علي الإرهاب" (ومن قبلها حرب الخليج وحرب البلقان) أن مشاعر المعاناة والبؤس التي كان علماء العلاقات الدولية التقليديين لا يعيرونها اهتماماً أصبحت حقيقة أساسية في الحياة الدولية على قول ريتشارد ديفيتاك (*Devetak*). فالنظرية النقدية في العلاقات الدولية ليست معنية فقط بمحاولات فهم وشرح الحقائق القائمة في السياسة العالمية، بقدر ما هي عازمة بالأساس علي انتقادها وتحويلها إعادة تشكيلها من جذورها. حيث تسعي النقدية إلي فهم العمليات الاجتماعية الأساسية في العلاقات الدولية لغرض فتح الطريق أمام التغيير، أو علي الأقل معرفة ما إذا كان هذا التغيير ممكناً أم لا؟ فالنقدية "ليست مجرد تعبير عن الواقع التاريخي القائم والملموس، ولكنها أيضا قوة تغيير داخل هذه الأوضاع" علي حد قول عالم العلاقات الدولية مارك هوفمان. فهي شكل من أشكال النقد الاجتماعي الذي يدعم الأنشطة والممارسات السياسية الساعية للتحول الاجتماعي.

مثل هذه الآراء جعلت البعض يجادل بالقول بأن النقدية ما هي إلا جزء من المدرسة الماركسية أو الاتجاه الاشتراكي في العلوم الاجتماعية. إلا أن ذلك لا يعتبر صحيحاً علي طول الخط. فالمدرسة النقدية ليست نظرية ماركسية صرفة، أو تستقي أصولها المعرفية من كتابات ومؤلفات كارل ماركس (أو انجلز ولينين) ولكنها تتعامل مع مؤلفاته عبر وسطاء أو مفكرين من الجيل الثاني أو الثالث من الماركسيين. مثل المفكر والمناضل الايطالي الشهير جرامشي، في مجال الاقتصاد السياسي الدولي، أو مدرسة

فرانكفورت وخصوصاً منظرها الرئيسي المعاصر يورغن هابرماس للتنظير في مجال السياسة الدولية. حيث ساهم تراث كلا من جرامشي وهابرماس (وحواريهم) في إبعاد المدرسة النقدية عن الحتمية الاقتصادية والصراع الطبقي الذي تتميز بها النظريات الماركسية، والاقتراب أكثر من أطروحات كانط الأخلاقية وأطروحات هيجل عن المجتمع السياسي [1].

والفارق بين التحليل الماركسي والنقدي هو أن التحليل النقدي يستلهم روح الماركسية ولا يتبني خطابها. فالماركسية تستخدم اقتراب "نماذج الإنتاج" لتحليل أنواع معينة من النظم الاجتماعية لتفسير التاريخ البشري. حيث يقوم هذا النموذج المعرفي علي افتراض أن قوي الإنتاج (التكنولوجيا) وعلاقات الإنتاج (العلاقات الطبقية) هي مفاتيح فهم النظم السياسية والتغير التاريخي. وعلي وجه الخصوص، فإن الصراع الطبقي من وجهة نظر الماركسيين يعتبر أكثر العوامل المؤثرة علي تطور المجتمعات وتغيرها عبر التاريخ. أي يمكن القول بأن المدرسة النقدية حاولت استرداد المشروع التحرري في العلوم الاجتماعية دون الانزلاق والدخول تحت عباءة الماركسية التقليدية من جانب، ودون تجاهل البعد الخطير في ظاهرة الحداثة [2]. حيث جمعت النقدية بين أفكار كلا من ماركس (الذي تجاهل إلى حد كبير أبعاد العلاقات الإنسانية، وكيف يمكن أن تؤثر علي الحروب) وأفكار كانط عن العالمية أو الدولاتية (*Cosmopolitan*).

لقد بزغت النقدية كتحدي للمداخل الوضعية مثل الليبرالية والواقعية بحلول نهاية الحرب الباردة. وغالباً ما يتم الربط بين المدرسة النقدية وبين المدخل المثالي في العلاقات الدولية. حيث أعادت هذه النظرية الاهتمام بمواضع خاصة بالجوانب الاجتماعية والعرقية والخطابية (*Discursive*) في العلاقات الدولية. كما أنها قامت بتنشيط المناقشات النظرية حول موضوعات مثل الحرب العادلة والتدخل الإنساني والمعايير والقيم الدولية، الشرعية، العدالة التوزيعية وحقوق الإنسان علي المستوي العالمي. معتمدة في ذلك على مسارات مختلفة من الفكر الاجتماعي والسياسي والفلسفي الغربي من أجل إقامة إطار نظري قادر على التفكير في طبيعة وغايات النظرية، والكشف عن الأشكال الواضحة والخفية من الظلم والهيمنة في المجتمع [3].

---

[1]. *Chris Brown and Kirsten Ainley: "Understanding International Relations". (London: Palgrave Macmillan, 2005), p. 55.*

[2]. *Andrew Linklater: "Critical theory", in Martin Griffiths (ed.): "International Relations Theory for the Twenty-First Century: An introduction". (New York: Routledge, 2007), pp. 48-62.*

[3]. *Griffiths, Roach, and Solomon: "Fifty Key Thinkers...", op, cit, p. 140.*

كما قامت مدرسة فرانكفورت بالأساس علي محاولة فهم السمات الأساسية للمجتمع المعاصر (المحلي أولاً ثم المجتمع الدولي فيما بعد) من خلال تحدي الخطاب السائد والمهيمن حول طبيعة الدول ونوعية العلاقات والتفاعلات فيما بينها من جانب، ومحاولة فهم عملية التطور التاريخي والاجتماعي التي مرت بها هذه المجتمعات، وتتبع التناقضات في حاضره، التي قد تفتح الباب أمام إمكانية تجاوز المجتمع المعاصر وأمراضه وأشكال الهيمنة المتأصلة فيه. والنقدية في جوهرها، وليس كما يعتقد البعض، لا تهدف إلي "للقضاء علي شكل أو كافة أشكال الإساءة" ولكنها تهدف إلي تحليل الهياكل الاجتماعي التي تتسبب في وجود ونشأة هذه الإساءات، بقصد التغلب عليها، انطلاقاً من مقولة ماركس الخالدة "أن الفلاسفة لم يقوموا سوي بتقديم تفسير العالم بطرق مختلفة، بينما المطلوب هو تغيير هذا العالم".

مثل هذا الإدعاء جعل البعض يجادل بالقول بأنه بهذا التوجه فإن كل النظريات تصبح معيارية، أو علي الأقل تحتوي علي جزء معياري في بنيتها أو إطارها العام، خصوصاً المهتم بجوانب مثل الطائفية، العالمية، التحررية والأطر الدولية [1]. إلا أن الفارق بين النظرية النقدية وغيرها من النظريات (الوضعية تحديداً) هو أنها لا تتحدي وتسعي فقط لتفكيك الأشكال التقليدية من التنظير، ولكنها تسعي إلى تفكيك الأشكال الراسخة للحياة الاجتماعية التي تقيد حرية الإنسان وتكبله بالأصفاد [2].

للتفرقة بين النظرية النقدية والنظريات الوضعية وغيرها من النظريات العلمية، قام روبرت كوكس بالتفرقة بين نوعين من النظريات بناء علي معايير الغرض من النظرية. فمن الناحية المنهجية، وطبقاً لكوكس ومن قبله هوركهايمر، فإن أي نظرية لها غايتان. الأولي تقديم حلول لبعض المشاكل التي تتواجد في ظل سياق معين ضمن البنية القائمة، التي تقبل بوجود الأوضاع والسياقات القائمة كحقيقة مسلم بها وتسعي لتحسينها. الغاية الأخرى للنظريات هي القيام بعملية النقد. وهي الغاية التي تعتبر انعكاساً لعمليات تغيير الهياكل التاريخية، عبر التحولات التي تبزغ داخل مجمع القوي التي تشكل البنية التاريخية القائمة، أو ما يسمي ب "الحس السليم" للواقع. وبالتالي فهي

[1]. *Charles Beitz: "Political Theory and International Relations". (Princeton; NJ: Princeton University Press, 1979). John Rawls: "A Theory of Justice". (New York: Oxford University Press, 1971).*

[2]. *Richard Devetak: "Critical Theory", in Scott Burchill, Andrew Linklater, Richard Devetak, Jack Donnelly, Matthew Paterson, Christian Reus-Smit and Jacqui True (eds.): "Theories of International Relations". (New York: Palgrave Macmillan, 2005), p. 141.*

تترك مجالاً للتفكير في إمكانية وجود بدائل لهذه البني القائمة. وهو ما ترفض نظريات حل المشاكل الاعتراف به.

إن "النظريات حلالة المشاكل" مثل الواقعية والليبرالية تبدأ أطروحاتها بأخذ العالم باعتباره حتمياً، أو أمراً مفروغاً منه، والسؤال الرئيسي لديهم هو "كيف يمكن جعل هذا النظام يعمل بأكبر قدر ممكن من السلاسة". بينما يجادل كوكس بأن "النظرية النقدية" تطرح تساؤلاً مختلفاً تماماً عن الذي طرحته نظريات حل المشاكل. حيث تتساؤل النقدية عن كيف نشأت الترتيبات العالمية الحالية، وما إذا كانت تغيرت عبر الزمن لأسباب ليس أقلها المنافسات والصراعات السياسية؟ وهو الاقتراب الذي سيقوم بتحديد "حركات مكافحة الهيمنة" التي تتحدي البني والمبادئ المسيطرة علي النظام، والسعي لمعرفة الطرق البديلة التي تنظم السياسة العالمية. فالواقعية الجديدة علي سبيل المثال، والتي تنظر لحالة الفوضى الدولية باعتبارها أمر غير قابل للتغيير، وبالتالي تتساؤل حول كيفية الحفاظ علي النظام الدولي في وجه العداءات والمنافسات الجيوبولتيكية. وبالنسبة للواقعية فإن الإجابة علي هذا السؤال تتوقف علي آليات مثل توازن القوي الذي يفرض قيوداً خارجية علي مصالح الدول القومية.

من ناحية أخري، وبسبب التأثير الكبير لكلاً من فوكو ودريدا وغيرهما من المنظرين وفلاسفة ما بعد الحداثة، يربط البعض بين النقدية والاتجاه ما بعد الحداثي في دراسة العلاقات الدولية. إلا أن هذان المدخلان رغم التقارب الواضح في أطروحاتهما يختلفان في عدد من المسائل. فعلي سبيل المثال فإن الكثير من منظري الاتجاه المابعد الحداثي ينظرون لفكرة الأخلاق العالمية والتقدم الأخلاقي باعتبارهما في جوهرها أفكاراً تعسفية. ويجادل مابعد الحداثيين بأن هذه الأفكار قد أدت لإقصاء العديد من الأفكار والجماعات بصورة هيكلية من النظام الدولي، كما أنها أدت لشيوع المطالب الشمولية المختلفة بذرائع التقدم (الاستعلاء) الأخلاقي ودعاوي العالمية [1]. بينما يرى النقديون (مثل هابرماس ولينكليتر في حقل العلاقات الدولية) أن هذه الأفكار المثالية والكوزموبولتينية ما هي إلا مساعي لتغيير النظام العالمي الاقصائي والمتحيز ضد بعض المجتمعات والأفراد والدول، ويسهم في ترسيخ أوضاع الظلم وعدم المساواة التي اتسم بها النظام الدولي الحديث.

هذا الاهتمام المعياري في تحديد الاحتمالات الجوهرية للتحول الاجتماعي هي السمة المحددة والمميزة للخط الفكري النقدي الذي يمتد في رأي البعض من هيجل وكانت

[1]. *Griffiths, Roach, and Solomon: "Fifty Key Thinkers...", op, cit, p. 61.*

وماركس وصولاً إلي هابرماس. والذي يؤمن بأن النية لتحليل إمكانيات تحقيق التحرر في العالم الحديث يجب أن تعتمد علي التحليل النقدي لكل العوائق والنزاعات الرئيسية نحو ما أسماه هوركهايمر "التنظيم العقلاني للأنشطة البشرية" [1]. فالنقدية في جوهرها ما هي إلا نقداً للدوغمائية الموجودة في الأوساط التنظيرية التقليدية والوضعية [2].

مثل هذا التصور، جعل النقديين ينظرون للعملية الأكاديمية (التنظيرية) نظرة مخالفة تماماً عما تروجه وتتبناه النظريات الوضعية (*Positivism*) التي قال عنها روبرت كوكس مقولته الشهيرة "أن [هذه] النظريات دائما ما كانت لشخص ما، ولغرض ما". وهي بذلك في رأي النقديين بغاياتها ومساعيها تجعل من وظيفة الباحث الاجتماعي مثل وظيفة أي مهندس، يقوم ببراعة اختيار الحل الأمثل لمشاكل من صنع يديه [3]. بينما مهمة المنظر السياسي طبقاً للنقديين هي شرح وانتقاد النظام السياسي الحالي من حيث المبادئ المفروضة والحتمية النبرة، والتي يُنظر إليها بأعتبارها جزءا لا يتجزأ من ممارسات المنظمات القانونية والسياسية والثقافية والمؤسسات. وبأن الأخلاق لا يمكن فصلها أو عزلها عن نظريات وممارسات العلاقات الدولية، وإنما يجب النظر إليها بأعتبارها جزء لا يتجزأ منها [4].

علي هذا الأساس، تري المدرسة النقدية أن هذه النظريات السائدة لا تستطيع مواكبة هذه التغيرات الهيكلية أو حتي تقديم تصور نظري عنها (*Conceptualized*) فهي بطبيعتها تعمل علي استدامة العلاقات الاجتماعية وعلاقات القوة القائمة، بما في ذلك مؤشرات عدم المساواة المتأصلة في بنية هذا النظام الذي تدعي هذه النظريات أنه ثابت ولا يمكن تغيره، أو كما قال كوكس، أن النظريات الوضعية دائما ما كانت لصالح جهة ما ولتحقيق غاية معينة. بينما ترفض الإقترابات النقدية (كالتي قدمها بوث وسميث ولينكليتر وبوزان وجونز وكامبل ودان علي سبيل المثال) قبول الافتراض القائل بأن المؤسسات والعلاقات الاجتماعية وعلاقات القوة كأمر مسلم به، ولكنها تدعو لوضعها محل تساؤل، والبحث بدلاً من ذلك عن أصولها وما إذا كانت في طور أو مخاض عملية تغيير وتطوير من عدمه. فهي تحلل كيف تكون وبزغ النظام الدولي القائم، وكيف تأسست المعايير والمُثل والمؤسسات والممارسات السائدة، والأهم اعتبار هذه العملية مجرد وسيلة

---

1. Horkheimer: "Critical Theory...", op, cit, p. 223.
2. Devetak: "Critical Theory", op, cit, p. 143.
3. James Bohman: "How to Make a Social Science Practical: Pragmatism, Critical Social Science and Multiperspectival Theory". Millennium, Vol. 31, No. 3 (July 2002), p. 506.
4. Karin Fierke: "Changing Games, Changing Strategies: Critical Investigations in Security". (Manchester; UK: Manchester University Press, 1998).

ونقطة بداية لتحديد واستكشاف ماهية هذه القوي، والقدرة علي تطوير وصياغة مشروع تحريري لنظام عالمي جديد أكثر عدالة [1].

في تفكيك مفهوم الحرب:

يمكن القول بأن النقدية لم تتطرق مباشرة لدراسة هذه الظاهرة بنفس الدرجة من التخصص والتركيز التي قامت بها نظريات مثل الواقعية والليبرالية والماركسية. وإنما اهتمت أكثر بدراسة نقائضها، أي المبادئ العامة التي يمكن أن تؤدي إلي إحلال السلام والعدالة والمساواة في النظام العالمي والمجتمع البشري في العموم. وبعيداً عن الدراسات النسوية التي تحدثت عن الحرب بأعتبارها ظاهرة "ذكورية" تُستغل لترسيخ أوضاع السيادة والهيمنة الاجتماعية الذكورية، وإخضاع النساء وإقصائهم من هيكل السلطة والثروة والنفوذ السياسي والاجتماعي والسياسي. وكيف ساهمت هذه الأوضاع الاجتماعية الموروثة تاريخياً في تأجيج نيرانها بصورة مستمرة عبر التاريخ من جانب، ومدي الارتباط بين النزاعات النفسية "الرجولية" والميل للاستعراض وغيرها من الصفات والسمات الذكورية في اندلاع الصراعات بين المجتمعات والأفراد عبر التاريخ [2].

من ناحية أخري، فقد اهتمت بعض الدراسات النقدية بتفكيك مفهوم الحرب وإعادة تركيبه من جديد، سواء عبر اختبار الأصول الانطولوجية والمفاهيمية عن الحرب، وتجاوز المركزية التاريخية والاجتماعية والانثروبولجية الأوروبية وتحدي خطابها الذي ساد وطغي علي عملية تشكيل وصياغة مفاهيمنا وإدراكنا وتكوين الوعي عن الحروب كظاهرة اجتماعية و"إنسانية". وثالثاً إعادة توجيه البحث والدراسة في أنواع وأشكال الحروب والصراعات المسلحة، والتوقف علي السير في ظل الأشكال والأنواع التي أصدرتها الأدبيات الواقعية (وتبنتها بقية النظريات والمداخل الوضعية الأخرى) عن الحروب (كمواجهة مسلحة بين حكومتين أو أكثر ينتج عنها مقتل أكثر من إلف شخص خلال عام) وإلقاء الضوء علي الأنواع الأخرى من الحروب الصراعات المسلحة والأطراف والفاعلون المتورطون والمنخرطون فيها [3].

---

[1]. *Robert Cox: "Social Forces, States and World Orders: Beyond International Relations Theory". Millennium, Vol. 10, No. 2 (June 1981), pp. 128-129.*

[2]. *Jean Bethke Elshtain: "Women and War". (New York: Basic Books, 1987). Inger Skjelsbæk and Dan Smith (eds.): "Gender, Peace and Conflict". (New York: Sage Publications Ltd, 2011). Valerie Hudson, Bonnie Ballif-Spanvill, Mary Caprioli, and Chad Emmett (eds.): "Sex and World Peace". (New York: Columbia University Press, 2012).*

[3]. *Tarak Barkawi: "From War to Security: Security Studies, the Wider Agenda, and the Fate of the Study of War". Millennium, Vol. 39, No. 3 (May 2011), pp. 1-16. Tarak Barkawi=*

كذلك تقدم النظرية النقدية اقتراب مخالف لتفسير حالة السلام والحرب في العلاقات الدولية، وخصوصاً الذي تقدمه النماذج الوضعية والمدرسة الواقعية علي وجه التحديد، القائم بالأساس علي تحديد مجموعة معينة من المؤشرات الأساسية التي لها تأثيراً علي العلاقات الدولية دون غيرها. مثل المشروعات والنظم القائمة علي فكرة سلام المنتصرين ونظام القيمة المحددة عبر نوعية الترتيبات والهياكل الأمنية التي تقوم بتشجيعها أو بإقامتها. فكونها بالأساس حركة فكرية ظهرت ضد الفاشية والنازية في ثلاثينات القرن العشرين، كانت النقدية بالأساس معارضة لكافة الأطروحات التي تزج بالبشر في آتون العدوان والكراهية والتسلطية والشمولية. سواء في الداخل أو في الخارج. وهو الأمر الذي يفسر تركيزهم الشديد للغاية علي دراسات السلام وكيفية تحقيق الاستقرار والتفاهم والتقارب بين المجتمعات واحترام كافة حقوق وحريات البشر الأساسية.

وبينما أتفق النقديين علي النظر للدولة القومية الأوروبية الحديثة، وظروف نشأتها وتطورها التاريخي سبباً في اندلاع الحروب والصراعات المسلحة بين الأمم، إلا أنهم تباينوا في توضيح أسباب ذلك. فهم من جهة يرفضون فكرة اعتبار الدولة القومية الشكل الوحيد للتنظيم السياسي، وبأن قدرتها علي تحقيق التكامل الإكراهي بين المواطنين هو الذي يحقق الأمن والسلام (الأهلي والخارجي). حيث دعا كوكس إلي ضرورة الاعتراف بأن الدولة تأخذ أشكالا مختلفة، ليس فقط في فترات تاريخية مختلفة، بل وفي نفس الفترة. وهو الأمر الذي دعاه للتركيز علي دراسة العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني كسبيل لرفض المنطق الواقعي الحتمي حول مركزية الدولة القومية (الويستفالية) واعتبارها القوي الوحيدة التي ساهمت في تشكيل النظام العالمي الراهن. ويري كوكس أن الواقعيين، والوضعيين عموماً، يتجاهلون حقيقة أن القوي الاجتماعية والمنظمات، والتفاعل بينها وبين الدول والأوضاع الدولية لعبت دوراً جوهرياً في تشكيل النظام الدولي وتحديد خصائصه الهيكلية [1].

فمن الناحية التاريخية، تشكلت حدود الدولة (كمجتمع سياسي) عبر التفاعل بين أربعة عمليات عقلانية، هي عملية بناء الدولة، التنافسات الجيوبولتيكية، عملية التصنيع

=and Shane Brighton: "Powers of War: Fighting, Knowledge and Critique". International Political Sociology, Vol. 5, No. 2 (May 2011), pp. 126–143.

[1]. Robert Cox: "Civil Society at the Turn of the Millennium: Prospects for an Alternative World Order". Review of International Studies, Vol. 25, No. 1 (January 1999), pp. 3-28.

الرأسمالي، وعملية التعلم الأخلاقي العملي [1]. خلال هذه العملية العقلانية استحوذت الدولة الحديثة علي خمسة أشكال من السلطة والقوة. تتسم هذه السلطات/القوي بأنها حصرية وغير قابلة للتصرف أو للتجزئة والمشاركة مع الآخرين. هذه السلطات هي (احتكار الوسائل المشروعة من العنف على أراضيها، فرض الضرائب، والمطالبة بالولاء السياسي الموحد، السلطة الوحيدة للفصل في المنازعات بين المواطنين، وأخيراً كونها الممثل الشرعي والممثل أمام القانون الدولي [2].

من جانب أخر، يؤمن النقديين بأن "الشعب فاعل والدولة فاعل" كما يقول باري بوزان. فالدولة ليست وحدها الهدف أو الغاية في دراسات العلاقات الدولية، ولكن الأفراد والعالم له نفس الأهمية ويستحق نفس الاهتمام الذي يوليه الوضعيين لدراسة الدولة [3]. حيث يرفض النقديين الدعاوي التي تقول بأن فكرة التجانس الإكراهي الذي تفرضه الدولة علي المواطنين هو الذي يحقق السلام والاستقرار، كما جادل هوبز من قبل. ويقولون بأن هذا التجانس مصطنع وقائم علي الإكراه، وهو الذي يقود السلطات والحكومات إلي الحرب. ويجادلون بأنه لابد من تغييره واستبداله بالحديث عن توافق المصالح، باعتباره الشكل الذي يخلق الرغبة في التعايش المشترك والاستقرار وتحقيق السلام، بل وفي الحفاظ علي الدولة نفسها ووجودها. فلابد من وجود تكامل ايجابي ومقنع (تعاقدي اختياري) بين الأفراد والدولة. فالهيمنة والسيطرة (النظم الشمولية) لا تؤدي إلى وجود شعور سلمي، بل علي العكس هي التي تولد مبررات وذرائع لاندلاع النزاعات والحروب، وتخلق عند الأفراد خوف مزمن، يمثل نقيضاً تماماً لكل ما تقول به النقدية وتسعي لتحقيقه وهو تمكين الأفراد (المواطنون) وانعتاقهم من قبضة هذه الهيمنة والشمولية الإكراهية.

إن التجانس الذي تحدث عنه الوضعيين قائم بالأساس علي فكرة الخوف. إلا أن النقديين يختلفون في مصادر أو اتجاهات هذا الخوف. فالواقعيين والليبراليين يرونه أحادي الاتجاه أو المصدر، ويرفض النقديين ذلك، ويرفضون أيضا فكرة أنه أحادي الانعكاس، ويجادلون بأنه بالأساس إحساس مشترك بين الدولة وبين الأفراد، أي أنها علاقة تبادلية. وهو الأمر الذي يفسر تركيزهم علي دراسة هذه النقطة التي تم تجاهلها

---

[1]. *Andrew Linklater: "The Transformation of Political Community: Ethical Foundations of the Post-Westphalian Era". (Columbia: University of South Carolina Press, 1998), pp. 147-155.*
[2]. *op, cit, pp. pp. 28-29.*
[3]. *Barry Buzan: "People, States & Fear: An Agenda for International Security Studies in the Post-Cold War Era". (Hertfordshire: Harvester Wheatsheaf, 1981).*

من قبل أغلب منظري العلاقات الدولية الوضعيين [1]. هذا الخوف في رأي النقديين ليس فقط نتاج القهر، وإنما أيضا نتاج المجهول في علاقات الطرفين. فالخوف كما أنه نتاج علاقات الهيمنة من جانب الدولة على الشعب (عنف الدولة تجاه المواطنين) فهو أيضا نتاج خوف الدولة من الشعب أو الشعب من الدولة من الناحية الأخرى. وأخيراً، فإن هذا العنف ليس بالضرورة أن يكون مسلحاً، فهذه سمة تتحدد علي نتاج العلاقات والمتغيرات السالف ذكرها.

إن جوهر خلاف النقديين مع الأطروحات الوضعية (الواقعية بالأساس) حول الدول ذات السيادة هو أنها تنظر للدول القومية ك "مجتمع أخلاقي محدود" يعزز الاستبعاد، ويولد القطيعة والظلم وانعدام الأمن والصراع العنيف بين الدول من خلال فرض حدود صارمة بين مفاهيم مثل "نحن" و"هم" كما جادل روسو، حطي في الدول الليبرالية ذاتها [2]. إن اجتماع كل هذه السلطات والوظائف (السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية) في أيدي كيان واحد هو الدولة، جعلها تمثل "مشروع شمولي" من وجهة نظر النقديين، يتوجب العمل علي إيجاد بدائل له والبدء في مساعي إزالته تدريجياً، عبر تعديل الروابط الاجتماعية بما يقود لتغيير حدود المجتمع السياسية والاجتماعية، وليس بجعلها الموضوع الرئيسي للدراسة في العلاقات الدولية [3]. حيث يري شابكوت أن هذه الدول غير قادرة على الاعتراف بالفروق، وتقلل من الأهمية المعنوية للاختلافات الوطنية. فهي ترفض أعطاء الأجانب حق التصويت والانتخاب في ما يسمي بالمحادثات الأخلاقية، ومن جانب أخر تنزع الحقوق عن اللاجئين والأجانب، وبالتالي تعجز عن تحقيق ما أسماه ب "عدالة الاختلاف *Justice to Difference*" [4]. وبالتالي شكك النقديين في الفكرة الوضعية السائدة التي تقول بأن الدولة القومية هي الوضع المعياري المرغوب فيه للتنظيم السياسي [5]. بل أن البعض منهم يري أن الدولة ذاتها كانت السبب الرئيسي وراء اندلاع الحروب بسبب فصلها التعسفي بين البشر. وهو الرأي الذي يوافق ما

---

[1]. Andrew Linklater: "Men and Citizens in the Theory of International". (London: Palgrave Macmillan, 1982).

[2]. Cox: "Social Forces, States and World Orders...", op, cit, p. 137. Linklater: "Men and Citizens in...", op, cit, pp. 28-29.

[3]. Andrew Linklater: "The Transformation of Political Community: Ethical Foundations of the Post-Westphalian Era". (Columbia: University of South Carolina Press, 1998), p. 44.

[4]. Richard Shapcott: "Justice, Community and Dialogue in International Relations". (New York: Cambridge University Press, 2001).

[5]. Kimberly Hutchings: "International Political Theory: Rethinking Ethics in a Global Era". (London: Sage Publications, 1999), pp. 123-125.

ذهب اليه كانط الذي رأي أن "الحرب كانت ضرورة لا يمكن إنكارها لفصل البشرية وتقسيمها إلي وحدات سياسية منفصلة ذاتية التعريف" [1].

بناء علي ما سبق، فإن الاتجاه النقدي يري أن "الحرب أخطر من أن تترك لأي سلطة" وهي بذلك مسؤولية الجميع ويتحمل أوزارها، وأيضا يتشاركون جميعاً في مساعي الحيلولة دون اندلاعها ومسؤولية حماية وبناء السلام في الداخل وفي النظام العالمي، اللذان لا ينفصلان عن بعضهما البعض من وجهة نظرهم. حيث يرى بعض النقديين أن روسو كان محقاً عندما رأي أن فكرة انضمام المواطنين إلي مجتمع معين سيجعلهم بالضرورة أعداء لبقية البشر في المجتمعات الأخرى [2]. من ناحية أخري، يري النقديين أن تحقيق السلام ومنع اندلاع الحرب يمثل هاجس يقتضي العمل المستمر، سواء لتدعيم وطائد وتثبيت دعائم السلام والتعايش المشترك داخل المجتمع المحلي والدولي، أو لمنع تنامي شعور عشق الحرب والقتال بين الأفراد والجماعات والدول من ناحية أخري. وهو الأمر الذي يجعلهم يؤمنون بأنه قادر علي مواجهة فكرة "المأزق الأمني" للواقعية، وبالتالي القضاء علي أسباب اندلاع الحروب من أساسها [3]. بتحويله من معضلة (صفرية المحصلة) تقع وتسبب الحروب بين الدول، إلي معضلة مرتبطة بالأساس بالتفاعل بين الأفراد والدول. وهو ما يجعل السلام (مثله مثل الحرب والأمن) واجب علي كل من يساهم في تنظيم التفاعلات بين الأفراد داخل المجتمع بين الدول من ناحية. من ناحية ثالثة، وكما سبق الذكر، فإن الاتجاه النقدي يرفض القول بإمكانية الفصل بين الجوانب الذاتية والموضوعية في دراسة العلاقات الدولية وظواهرها. وهو ما يتضح في دراستهم للحرب والسلام. حيث يري النقديين أن الحرب (والمخاطر والتهديدات التي تنتجها) إنما هي بالأساس نتاج البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الدولية، كما هي أيضا نتاج للبيئات الطبيعية والنفسية للبشر وللقادة [4]. وبالتالي لا يمكن إرجاع أسباب الحروب لأحد هذه البيئات دون غيرها، كما تفعل النظريات الوضعية.

خاتمة:

[1]. *Richard Devetak: "Critical Theory", op, cit, p. 147.*
[2]. *Devetak: "Critical Theory", op, cit, p. 147.*
[3]. *Andrew Linklater: "Men and Citizens in the Theory of International Relations". (London: Palgrave Macmillan, 1982).*
[16]. سيد أحمد قوجيلي: "الدراسات الأمنية النقدية: مقاربات جديدة لإعادة تعريف الأمن". (عمان: المركز العلمي للدراسات السياسية، 2013).

عبر التاريخ كانت الحرب مثالاً للظواهر المثيرة للجدل، والمشاعر المختلطة نحوها. فهي من جانب دليل علي الشجاعة والفخر والمجد، ولكنها في ذات الوقت أكبر دليل علي فشل البشر في التصرف بمدنية وتحضر. فهي عند البعض "ما يعطي لحياتنا معني وغاية" وعند البعض الأخر "الوسيلة التي نحمي بها وجودنا وندافع بها عن حياتنا" فالمرء لا يحب الحرب من أجل لمعان السيوف وحدة نصلها، أو للسهام وسرعتها، أو حتى لتكريم شجاعة الجنود والمحاربون بأكاليل الغار، كما يقول جي ار ار تولكين، ولكن "من أجل الغايات التي ندافع ونقاتل من أجلها في وجه قوي التدمير والخراب". من ناحية أخري، فالحرب أيضا هي التي وصفها شكسبير في أحد مسرحياته ب "أبنة الجحيم" ليست سوى كما وصفها هيمنجواي بأنها "مهما كانت غاياتها، ومهما كانت اعذارها أو تبريراتها، فما هي في النهاية إلا جريمة"! وللأسف، لن يكون هناك في المستقبل حرباً ستنهي جميع الحروب (كما تمني البعض منذ حوالي مائة عام) ولكن الحرب قد تكون هي التي ستنهي حياة البشر، حتى لو اضطر البشر للقتال بالعصي والحجارة كما تنبأ اينشتاين. ولن يري نهايتها سوى الموتى، كما قال أفلاطون قبل ألفين عام.

لقد كانت الحرب السمة الحاكمة للنظام الدولي منذ بزوغه عقب صلح ويستفاليا 1648 طوال ثلاثمائة وخمسون عام وأكثر، التي هي عمر النظام، وربما حتى علي امتداد التاريخ البشري منذ المجتمعات الزراعية، حينما كانت التطورات الجذرية في النظام لا تحدث سوي بالحروب والصراعات المسلحة. حيث لم يدوم السلام بين القوي العظمي سوى لمدة سبعون عاماً متصلة، وهو ما يعرف بعصر السلام المديد *Long Peace* بلغة الواقعيين أمثال جون جاديس (*Gaddis*) [1]. الذي تحقق بين القوي الدولية "الغربية" (وليس كافة وحدات النظام الدولي) في القرن التاسع عشر (1815 – 1854) و(1871 – 1914) وأخيراً منذ العام 1945 وحتى الآن. بفضل البنية القطبية الدولية التي بزغت عقب الحرب العالمية الثانية، والردع النووي والقواعد الحاكمة للعلاقات بين القوي الدولية. بينما ظلت الحروب تحتل الحيز الأكبر من عمر النظام الدولي، كأقدم عمل منظم وجماعي (مع الصيد الذي يعتبر هو الأخر حرباً من نوع مختلف) في تاريخ البشر (علي حد قول توينبي).

لا يختلف الواقعيين مع باقي مدارس العلاقات الدولية، خاصة الليبرالية والمؤسساتية، حول (ضرورة) *Necessity* تحقيق السلام والتعاون الاستقرار الدولي. وإنما

[1]. *John Lewis Gaddis: "The Long Peace: Elements of Stability in the Post-war International System". International Security, Vol. 10, No. 4 (Spring 1986), pp. 99-142.*

الاختلاف يدور حول (كيفية) *Means* تحقيق ذلك، كما يذهب جون ميرشايمر. إن الواقعيين لا يقللون من الدور الذي يمارسه فاعلون غير رسميون مثل المنظمات الدولية والمنظمات "الدولية" غير الحكومية والشركات العابرة للقوميات وغيرها، أو متغيرات غير مادية مثل القيم والمعايير القانونية والأخلاقية في النظام الدولي، بقدر ما إنهم يرون هذا الدور باعتباره دوراً تابعاً *Subroutine* للدولة، باعتبار أن المنظمات الدولية في التحليل الأخير ما هي إلا أداة من أدوات الدول *Instrument* وتابعة لها وليست عاملاً أو فاعلاً مستقلاً *Independent Actor*، كما يجادل المؤسسيون الجدد مثل كيوهان وروجيه وناي وغيرهم. فإذا نجحت المنظمات في ترسيخ قواعد السلام والحفاظ على الاستقرار وتحقيق الأمن، فإن ذلك يرجع (في رأى الواقعيين) إلى رغبة الدول الأعضاء في المنظمة، بما يتراء لها أنه تحقيقاً لمصالحها الوطنية، على ممارسة نوعٌ من التقييد الذاتي *Self-Restraint* على سلوكها الخارجي، والاهتمام بتحقيق المكاسب الجزئية (*Relative Gains*) أكثر من المكاسب الكلية (*Absolute Gains*). وليس للنفوذ الذي تمارسه قواعدها أو المتغيرات التي تضغط بها المنظمات عليها، وبقدر ما هو انعكاساً لحسابات المكسب–الخسارة التي تجريها الدولة.

فقد ترى الدولة (س) أن انجاز مصالحها وتحقيق مكاسب جزئية في وضع بنيوي معين (اختلال جزئي في توازن القوى) مع الدول (ص)، أو وجود مصدر تهديد من الدولة (ع) تكون غير متأكدة من قدرتها على التصدي له بصورة شاملة، قد يكون أفضل من مغبة محاولة جني المكاسب الكلية، التي قد تنتهي بخسارة كلية. بينما بقبولها بتحقيق مكاسب جزئية، فإن خسارتها ستكون كذلك خسارة جزئية. وهو ما دعي البعض للذهاب بالقول بأن الواقعية قد تحولت إلى منهج "التكلفة العائد" أو حسابات "المكسب والخسارة". ولكن ذلك (في رأينا) لا يعتبر تراجعاً للمدرسة الواقعية وأطروحاتها بقدر ما يعتبر تعديلاً أو تكييفاً لتلك الأطروحات، التي تهدف في الأساس لتجنب الحروب وتحقيق المصالح الوطنية للدولة. سواء بصورة جزئية كانت أو كلية. فالمهم هنا أن تتحقق مصالح الدولة.

إن الأسباب والأطروحات المضادة التي تقول بأن الحرب إلي زوال ليست صحيحة إلي حد كبير. فهناك عدد من المؤشرات والعوامل (مثل الثورات، الإرهاب، التغير المناخي، صعود القوي الأوتوقراطية وتراجع الديمقراطيات وغيرها) تقول بأن ظاهرة الحرب ليست إلي زوال، ولكنها بسبب التغيرات التي شهدتها طبيعتها، فإنها تراجعت وأنزوت وأصبحت نادرة الوقوع خاصة في الغرب. فهي وإن لم تعد "لوحدها" كما كانت طوال التاريخ الإنساني، أهم الظواهر وأكثرها تأثيراً علي حياة الأمم والمجتمعات، إلا أنها مازالت قائمة وبشدة، ويظل تأثيرها علي النظام الدولي والسياسة الدولية جوهرياً. فمادام

هناك شر في هذا العالم، ومادامت الدول القومية (والقوي الدولية تحديداً) موجودة في النظام الدولي، بسعيها المرير والدائم لإحداث تغيير في توازن القوي في الأوضاع الدولية المستقرة (نتيجة السلام) فإن الحرب ستظل موجودة للأبد. فالحرب في نهاية الأمر نتيجة وليست سبباً.